

أمور العسكرية العثمانية : مراجعة للتراث

فرجينيا هـ إكسان

Erik J. zurcher, editor, Arning the State: Nilitory Conscription in the Middle East and Central Asia, 1775-p,25 (London: I.B. Tauris, 1999) 168pp.

Jereny Black, editor, European Warfore 1453-1815 (Problens in Foucs (New York: St. Martin's Press, 1999) 286 p.

Jereny Black, editor, War in The Early Modern World: 1450-1815 (London: UCL Press, 1999). 268 pp.

لقد دفع مجلة التاريخ الحديث المبكر، الاهتمام المتزايد بالإمبراطورية العثمانية بين مؤرخي العصر الحديث المبكر إلى طلب قيام باحث تقديم مراجعة للكتب الحديثة عن الحرب والمجتمع العثمانيين. ولأن المهمة أوكلت لي، فإنني اخترت كتباً نشرت في العقد الماضي، وهي تقدم مقاربات مختلفة - دراسة حقن علمي دولي - وباستثناءات قليلة جداً، فإن الاختبارات قد اقتصرت على بعض الكرايس أو الأعمال الجماعية، واقتصرت على تقديم الدراسات

ترجمة

الدكتور:

أبو بكر

أحمد

باقادر*

* بكالوريوس من جامعة البترول والمعادن في الظهران عام ١٩٧٢م.

- ماجستير في علم الاجتماع من جامعة وسكانسن في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦م.

- دكتوراه في علم الاجتماع من الجامعة نفسها عام ١٩٧٩م.

- يعمل الآن أستاذ علم الاجتماع في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

رمضان - ذو الحجة ١٤٢٥هـ
أكتوبر ٢٠٠٤م - يناير ٢٠٠٥م

الطريق

السنة السابعة
العددان: السابع والثامن والعشرون

٤٠٨

"قبل الحديث كإطار زمني، مما يعني أننا لم نشمل عدداً متزايداً من الكتب الجديدة تناولت حقبة متأخرة من حياة الإمبراطورية (من حرب القرم حتى الحرب العالمية الثانية)^(١). ولقد انحصرت المراجعة هنا للكتب الصادرة بالإنجليزية وللجيوش البرية، مما يعني إهمال عقود من جهود المؤرخين في مناطق كانت في مرحلة تاريخية ما تحت السيطرة العثمانية وبعضها في تركيا اليوم. وبنفس الطريقة، يعني ترك دراسة البحرية العثمانية فقدان عدد لا بأس به من الكتب الحديثة حول شرق المتوسط^(٢).

الكتابة التاريخية العثمانية حقل مهمل بشكل يدعو للاستغراب والدهشة، وعلى وجه الخصوص الحقبة التاريخية بعد عام ١٦٠٠م، وبالذات؛ لأن أحد الاقتراحات العامة بخصوص العثمانيين هي أن الإمبراطورية العثمانية نظمت بشكل أساس للدخول في حروب مع الكفار. لم تُبذل جهود ملموسة منذ كتاب شووليفي^(٣) في الستينيات وبداية السبعينيات من القرن العشرين حول أسرار استمرار بقاء

(١) على سبيل المثال هناك نوعان من الدراسات للتجربة العثمانية هما:

James J. Reid; *Crisis of the "Ottoman Empire: Prelude to Collapse, 1839-1878*, (Stuttgart: Vranz Steiner, 2000); Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War*, (Wesport, Civ Green Wood Press, 2001).

(٢) كما هو الحال في دراسات كل من دانييل بانيز (Daniel Panzae) وموللي جرين (Molly Green) وبلاميرا بروميت (Palmira Brummet) وصالح أوزبران (an' Salih Oz-bar) وإدريس بستان (Idris Bostan) ولبنيز مقالة حول إمداد التجربة بالرجال في

كتاب . *Arming The State*

Avigdor Levy, "The Military Policy of Sultan Mahmud II 1808-1839", Ph. D. Thesis, (٢) Harvard University 1968, Stanford, *Between, Old and New: The Ottoman Empire Under Sultan Selim, III, 1789-1889*, Cambridge: Harvard University, Press, 187.

العسكرية العثمانية (أو بالأصح انتعاشها) بعد الهزائم المجسدة في معاهدات كارلويتش (١٦٩٩م)، وبعد معاهدة كوشك كاينارجيه هناك عدد من الأسباب الواضحة للتجاهل. أحدها يتعلق بفخامة التدريب اللساني والبحث الأرشيفي المطلوب للوصول إلى فهم للنظام العسكري، أجنبي كلياً لمؤرخي الجيوش الأوروبية. وإضافة إلى ذلك، فإن سجلات الإنكشارية في حقبة ما بعد ١٧٠٠م في حالة فوضى عارمة، بالرغم من أن جهوداً أرشيفية قد بذلت في العقدين الماضيين أدخلت بعض النظام والترتيب لهذه الفوضى أو السرنديبية (أي اكتشاف الأشياء النفيسة بالصدفة). هناك خطوة إضافية مطلوبة من أجل أن يصبح المرء عارفاً مطلعاً على تراث التاريخ العسكري، وهو تراث واسع وموضوع شائك. بالإضافة إلى ذلك، في الدوائر الأكاديمية بأمريكا الشمالية، فإن التاريخ العسكري كان له رنين أو صدى مع "متلازمة فيتنام"، حيث تتعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع فشلها العسكري وكان في موضوع ازدراء من طرف الباحثين من جيل الستينيات. في المقابل، نجد عند الأوروبيين كفاية تاريخية متطورة في شؤون الحرب والمجتمع، ولقد أثارت قدراً كبيراً من الجدل حول طبيعة الصراع ودور التقنية ومدى تطور الدولة - القومية. وفي الأيام المتأخرة، حاول المختصون في الدراسات العثمانية أنفسهم القيام بإعادة صياغة القرن الثامن عشر، عندما كانت نماذج الجمود والتحلل النظرية آخذة في التحلل ولم تعد تشكل وجهة نظر متجانسة حول الحرب والمجتمع في الشرق الأوسط قبل - الاستعمار. ولقد اشترك المختصون في الدراسات العثمانية بالتعاون مع مؤرخي العالم، الذين يعملون على دمج العثمانيين (وتاريخهم العسكري) داخل إطار السرد التاريخي لمدد طويلة.

والكتب التي نراجعها هنا يمكن أن تصنف بشكل تقريبي إلى ثلاث حقب من

التاريخ العثماني: ظهور فكرة الإمبريالية ١٣٠٠-١٥٠٠م: إقامة وتماسك عاصمة وثقافة إمبريالية، ١٥٠٠-١٧٠٠م والتحول إلى نزعة شمولية حديثة، ١٧٠٠-١٨٥٠م^(١). وبحسب المصطلح العسكري، فإن الفترة ١٣٠٠-١٥٠٠م تغطي حقبة الصراع الطويلة للهيمنة على الأناضول والبلقان، والصراع بين الفرسان المحليين من أصحاب الأراضي (السباهيين) والمشاة "العبيد الأجانب" المعتمدين على القصر والانتصار النهائي على المركز الإمبريالي، القسطنطينية. وعموماً تعرف الفترة ١٥٠٠-١٧٠٠م بوصفها "العصر الذهبي" للعسكرية العثمانية، عندما كان تنظيم الانكشارية الفريد، الذي كان يخافه ويعجب به الملاحظون الأوروبيون، هو التنظيم الأكثر فاعلية .. وعندما كانت المخازن وأنظمة التموين والمشاة المنضبطين بالإضافة إلى تكتيكات الحصار الممتازة هي من أبرز صفات الحملات. بعد ١٧٠٠م كان نظام استقدام العبيد قد انهار وأصبحت الانكشارية قد ترسخت كشبكة رعاية اجتماعية في كافة أرجاء الإمبراطورية، وكان على العثمانيين أن يلجأوا إلى أسلوب الميليشيات وإلى الأنظمة اللوجستية المعتمدة على الإقليم لمواجهة الجيوش الأوربية المستمرة التحسن على طرف الدانوب وغيره. لقد كانت النخب العثمانية العسكرية المحلية وجيوشها التي يُسيطر عليها الفرسان هي القوات الحربية الأكثر نموذجية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ولقد استبدل بحلول عام ١٨٥٠م كل من سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) ومحمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) نظام الانكشارية بوحدات مشاة بالأسلوب الحديث ووحدات سلاح المدفعية، لكن استمر استخدام القوات المحلية في الحالات غير الاعتيادية من احتياط الأقاليم.

(١) مع أن بداية ونهاية كل حقبة هي موضع جدل كبير، لذا فإن التواريخ قد عممت إلى قرون بدلاً من عهد حكم سلاطين محددين أو معاهدات معينة، كما جرت عليه العادة.

١ - ظهور الدولة الإمبريالية: ١٣٠٠-١٥٠٠م

لا يزال لا يوجد حتى يومنا هذا تاريخ شامل للقوات البرية العثمانية، منذ البداية حتى النهاية، بالإنجليزية. ولقد نشر تاريخ أوزنجار شيلي بالتركية لأول مرة فيما بين ١٩٤٣-١٩٤٤ ولم يترجم ولم يظهر ما يفصله. وإن كانت هناك بعض الانتقادات حول الأطراف الآن. فيراجع كتاب جمال كافدار "بين حربين" كتابة تأريخ ظهور بيت العثمان، لكنه لا يقدم سوى القليل ليتحدى النظرية العامة القائلة بوجود مجموعة من الغازيين المتدينين ممن وجدوا في المكان والوقت المناسبين^(١). لكن مع ذلك فإن هذا الكتاب وغيره قد استثار جدلاً أصيلاً حول كيف يمكن وصف قوى إمبراطورية تمكنت فيها بين ١٣٠٠-١٤٥٣ أن تُنهي (أو تقلص) معظم الأسر المالكة في البلقان ومع بعض الاستثناءات أن تقضي على غالبية خصومهم في الأناضول.

ويقدم الكتاب الأول في القائمة جهداً في سرد تأريخ الانكشارية في شمولية. وكان جدوين قد نشر فيما بعد كتباً عن الحريم وعن قصر طوب قابي^(٢). وهذه الكتب، في الحقيقة، عبارة عن أدلة قصص جمعت عن طريق إخباريين عديدين من مراقب العثمانيين عبر القرون. ونص الانكشارية نظم بشكل التسلسل التاريخي، ويحتوي على مادة شيقة، لكن مستوى التحليل يمكن أن يتضح من خاتمة الكتاب: "فلقد كان الانكشارية رث الملابس مجرد مرآة، في المحصلة، للمجتمع الذي قاتلوا (أحياناً) نيابة عنه. فلقد ورثوا تقليداً عجباً لقيادة سياسية شعبية ولدت بالتالي طائفة عسكر الشرق

I.H. Uzuncars. H, Ot'smanli Devleti Tes Kilatindan Kapukulu Ocaklan, 2. Vols (١) (Ankara: TTK, 1943-44) Cenal Kafader, Bestweem Two Words: The lenstruction of The Ottman State (Berkeley: University of California Press, 1995); also an e-boot. God Frey Groodwin, The Privace World of Ottoman Women (London: Saqi Books, (٢) 1997) and Topkapi (London Saqi Books, 1999).

الأوسط ومصر الحديث، وهم وإن كانوا أحسن تعليماً وأكثر مثالية لكنهم أيضاً، في بعض الأحيان، فاسدون بسبب اهتمامهم بالتجارة^(٢٣٢). وبالرغم من ذلك النقد فإن الكتاب، وإن كان كتاباً مثيراً، كان يهدف جمهوراً عريضاً قد تكفي بالنسبة له أمثال هذه الحكايات الشرقية - لكنه لن يكفي كتاريخ للنظام العسكري الإمبريالي.

ويعد كتاب شاي هارايل عن تاريخ الحرب العثمانية - المملوكية، عام ١٤٨٥-١٤٩١م، كتاباً رائعاً ومن أهم الكتب التي ظهرت في سلسلة بريل تحت إشراف ثريا فاروقي و خليل أنالجيك. إنه كتاب تاريخي غني بالتوثيق. ويقدم شاي هارايل قصة الصراع بين قوتين إمبرياليتين قبيل فتح العثمانيين مصر عام ١٥١٦/١٥١٧م. ويقدم شاي هارايل قائمة التواريخ العثمانية والتركية الحديثة والعربية والإيطالية بالإضافة إلى السرود المختلفة والوثائق الأرشيفية، وهو يستخدمها جميعاً ليقص قصة التنافس والصراع على الولاءات السياسية المملوكية لحدود الأناضول؛ موضحاً مدى أهمية وجود منطقة عازلة (وهي فكرة امتدت عما كان يجري على الدولة البيزنطية) بين قوتين مسلمتين ومملكتين تابعتين للحفاظ على حدود آمنة. ويصف الفصل السابع، معركة عام ١٤٨٨م بين جيوش المماليك والعثمانيين، بشكل تفصيلي وبخرائط توضيحية وتمثيلات معاصرة للمواجهة. لقد اعتمد هارايل على حصيلة غنية من المصادر المعاصرة والثانوية وأنتج تاريخاً عسكرياً هو نموذج لما ينبغي أن ينجز عن الفترة فيما بين ١٣٠٠-١٥٠٠م. ومع إعادة طباعة كتاب جون وود حول الآق قيونلو (Akkoyunlu) أصبحنا أكثر استعداداً للتعامل مع إحدى أكثر الحقب التاريخية غموضاً لمنطقة وسط آسيا وإيران والأناضول^(١).

John E. Woods, *The Aqquyunku: Clan, Confederation Empire*. Rev. ed (Saltcity: (١) University of Uton Press, 1999).

٢ - اندماج وتماسك عاصمة إمبريالية وثقافة أعوام ١٥٠٠-١٧٠٠م :

الهنغاريون هم من أوائل وأبرز الباحثين في تاريخ العصر الذهبي أو الكلاسيكي، والهنغاريون تاريخهم مع العثمانيين كان عميقاً وانتهى مبكراً. وما قدمه كل من دافيد وفودر يستحق الإشادة وخاصة في جهودهم الواضحة في تقديم الدراسات الهنغارية حول هذه الحقبة الغنية لجمهور دولي عريض (كما ذكرنا في فاتحة كتابهما ١٩٩٤م). فنجد في الستة عشر فصلاً التي نشرت في مجلدين، مقالات من أمثال مقالة كالاراجي "القوة العسكرية في هنغاريا" (١٩٩٤: ١٣١-٤٨) وهي مقالة ظريفة، فهي تقدم وصفاً للنظام العثماني، للقلاع وجنود الجامعات من ١٥٥٦-١٥٥٩، وكذلك فرسان السباهية (النماری) مؤكدة عن طريق الاستخدام الحذر للإحصائيات الأهمية الحيوية للحدود الهنغارية في الإستراتيجية العثمانية. ولقد استخدمت مواد أرشيفية مبكرة (للفترة ما بين ١٥١٣-١٥١٤م) من طرف فودر ودافيد لتوضيح الدبلوماسية العثمانية قبل الانتصار في موهاجس في عام ١٥٢٦م ("مفاوضات السلام الهنغارية - العثمانية" ١٩٩٤: ٩-٤٩). وهنا، يوجد اهتمام عام لمؤرخي عسكرية أوروبا الشرقية، من أمثال مقالة يوسف كلينك: "الثورة العسكرية في هنغاريا" التي تتفاعل وتتداخل مع كتابة جيفري باركر وغيره التاريخية (٢٠٠٠م : ١١٧-٥٩) ومقالة فودور: "العيش على الحدود: المتطوعون في الجيش العثماني في القرن السادس عشر" (٢٠٠٠م: ٩٢٢-٣٦) ومقالة دافيد: "مهنة عسكرية على الحدود الهنغارية: قاسم فويضاو بيه وباشا" (٢٠٠٠م: ٢٦٥-٩٧)، وجميعها مقالات ممتعة وزاخرة بالمعلومات. وتكمل "بيليو جرافيا مختارة" (٢٠٠٠م: ٢٩٩-٣١٤) للمطبوعات الحديثة للباحثين الهنغاريين. وتشبه هذه الجهود المشروع الطموح الذي استمر لعقود الذي قام به بيلاك كيراك وغيره بعنوان: "الحرب والمجتمع في شرق

ووسط آسيا" والذي وسع كثيراً مداركنا ومعرفتنا بجيش الإمبريالية قبل عام ١٧٠٠م.

وبصورة مشابهة، فإن كتاب "الحاميات العثمانية" يعد جهداً مشتركاً ونادراً لنشر نموذج للوثائق الأساسية للتنظيم العثماني، وأسماء القوى المحلية من غير الانكشارية في هنغاريا (بُدئ، ثم جمع المادة عام ١٥٤٩م). ومعظم الكتاب عبارة عن كتابة وترجمة محتوى النص العثماني مع تحليل بسيط جداً. ولقد قامت مقدمة ديمتروف بجهد حسن للتعريف بالمصادر الاثنية والدينية للقوى البشرية المحلية العثمانية، وهذه المقدمة في حد ذاتها ذات قيمة عالية وتمرين أساساً للتعامل مع الحقبة المبكرة، لكن مع ذلك تعاني من الأخطاء والمشكلات، على سبيل المثال، الاستدلال من أسماء الأشخاص أنهم دخلوا الإسلام، سيأخذ المؤرخون العسكريون للعصر الحديث المبكر في اعتبارهم مشكلة "تثبيت: مصدر التسجيل في الجيوش قبل - القومية. كذلك شملت الدراسة قوائم مفيدة لأسماء مسلمين ومسيحيين وأسماء مواقع جغرافية أيضاً.

وكغيرهم من جيوش العالم، كان للعثمانيين زيادة أو إفراط في المصطلحات والأسماء التي جاءت وذهبت خلال مدة تزيد على ٦٠٠ سنة. وأحد العوائق الأساسية التي كانت تواجه أي مؤرخ يحاول أن يعمّم التجربة العثمانية هو بشكل دقيق التوسط بين القارئ ومئات المصطلحات الغامضة التي لم يحدد الحقل نفسه بشكل دقيق بعد. (لا يوجد قاموس تاريخي لقوى اللغة التركية).

أما الكتاب التالي في القائمة فهو كتاب ميرفي: «الحرية العثمانية: ١٥٠٠-١٧٠٠م»، وهو كتاب أعده أحد أبرز العلماء المحدثين العارفين بأسرار الأرشيف

العثماني، والكتاب يوضح التوتر القائم في محاولة الوصول إلى جمهور عريض، بينما الإصرار على استخدام مصطلحات عثمانية فريدة. والنتيجة مذهلة رائعة لكنها في الوقت نفسه وصف متعب مضمّن قيود وحدود الحرب العثمانية). (xviii) ومورفي خبير عارف بأحوال التواريخ المعاصرة. والكتاب غني جداً بالرسوم التوضيحية بالإضافة إلى الخرائط والجداول والملاحق ويحتوي على معلومات مذهلة عما يستطيع حمله جمل أو العبء المالي لأجور الانكشيرية أو القدرة التفاوضية للوحدات العسكرية المحلية في أوقات الحاجة الماسة للقوى البشرية أو بخصوص توزيع غذاء للوحدات العسكرية، وهذا فقط لضرب الأمثلة على ما يقدمه كتاب ميرفي. وبحسب علمي، هذا هو أول جهد علمي للسعي في جمع هذا النوع من المعلومات على مدى مدة ٢٠٠ سنة ولجبهتين عثمانيتين - الجبهة الإيرانية والجبهة النمساوية^(١). ويعطي ميرفي اهتماماً خاصاً بدراسة تدبير احتياطي الوحدات العسكرية وفق حرب الحصار، وهذه الأمور كانت موطن القوة العثمانية. ويصف استثمار بغداد عام ١٦٣٨م، خلال الحملة التي استعاد فيها مراد الرابع (١٦٢٣م-٤٠) بغداد لصالح الإمبراطورية - مقدماً لنا أثناء ذلك معلومات حول الألغام كانت في المتوسط لا تزيد على خمسين ياردة في خندق يوننيا وأن هذه تممد لطوب خمسة أميال وأنها مع الوقت يصبح طريقها متعرجاً إلى خندق مائي خارج بغداد (١١٧).

Caroline Finkel, *The Adminstration of wasfare: the Ottoman Mifilory Campaigns* (١) *im Hungary, 1593-1606*, (wien: VWGO, 1988).

ينبغي أن يذكر هنا، وذلك لأن هذه الدراسة تعالج القضايا نفسها التي تعالجها دراسة كل من: *Murphey's, MetinKunt, and Christine Woodhead's Suleyman The Magnificent and His Age: The Ottoman Impire in The Early Modern History* (London: W: London, 1995). وهي دراسة تأملية للتفكير المعاصر حول العصر الذهبي للعثمانيين.

ويصاحب السرد التفصيلي للحملة قوائم للوحدات العسكرية والمؤن والخدمات الإضافية بشكل مفصل .. وبشكل مشابه، يقدم كتاب ميرفي وصفاً لحملات أقل حجماً في النمسا وهنغاريا، وهنا يأتي على نموذج للحصار والاستسلام تكمن خلفه الصورة الشائعة للقسوة أو الوحشية العثمانية ، ويقترح تقدير دور التسوية القائمة على مفاوضة على طول حدود محددة بشكل متزامن وللجيوش منظمة جداً (١٢٨). وفي الفصل الثامن المعنون: "التأثيرات البعيدة لفن الحرب العثماني: مراجعة للعناصر الأساسية للبرجماتية العثمانية في المجال العسكري" نجد ميرفي يكرر ما يراه "تبادلية الجهد" و"المشاركة في الفوائد والجوائز" كجزء من معيقات الإدارة العثمانية للحرب. ويسأل ثلاثة أسئلة: إلى أي مدى كان فن الحرية العثماني مدمراً في القرن السابع عشر؟ إلى أي مدى كان العثمانيون يعنون بإستراتيجيات المشكلة؟ بأي الطرق كانت وظيفة إعادة التوزيع ستكون عاملاً فاعلاً؟ ويدافع ميرفي عن الدور الجيد للدبلوماسية والمفاوضة، والتوقف عن ذكر الجدل الديمجرافي القائم أصلاً في هنغاريا حول تأثير الغزو العثماني ويطالب بوجهات نظر أكثر توازناً لمنطق العسكرية العثمانية. ونحن نميل إلى ذكر أكبر المعارك المدمرة، ولاحظ، أن هذه الأحداث جعلتنا نتغافل عن الحملات الأصغر التي وقعت في مناسبات معينة وهي حملات محلية وجميعها تقع ضمن إطار نموذج منتظم على طرفي الأرض المتوسطة بينهما في القرن السابع عشر. ويتفق ميرفي على قدر كبير من نتائج الباحثين الهنغاريين وكتاباتهم في المجلدين والتي جئنا على ذكرهما سلفاً.

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني، فإن ميرفي سيوافق على أن البيروقراطيين العثمانيين مثلهم مثل نظرائهم في القصور الملكية الأوروبية، كانوا عاجزين عن تحصيل ضرائب إضافية أو توسيع الموارد الأساسية للحفاظ على استمرار الحرب.

ويعود السبب الرئيس في ذلك إلى بعد المسافات وعدم القدرة على الاتصال وغياب التنظيم الإقليمي الذي كان يمكن أن يكون إجبارياً . وبالضبط : في هذه التصدعات أو الفجوات التي ظهرت فيها المجموعات المحلية من محدثي النعمة، إنها قصة العثمانيين في القرن الثامن عشر . أما السؤال الأخير الذي أثاره ميرفي فإنه يجعل قضايا فن الحرب كما لو كانت مثيرة أو مدمرة للاقتصاديات المحلية .. وحتى مع توافر معلومات أكثر، مع الدراسات المختصرة (الكراريسية)، فإنني أشك أن هذه القضية سوف تحل قط . وكل ما يرغب ميرفي في اقتراحه فقط هو أن الحملة العثمانية، في الواقع، يمكن أن يعضدها نمو اقتصاد التوزيع ويعضد المدن الصغيرة والإنتاج الزراعي .

ولقد كان استقبال المختصين في الدراسات العثمانية لكتاب ميرفي مختلطاً، ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى أن الكتاب على درجة عالية من التخصص، لكنه أيضاً بسبب عدم رغبتنا الدفينة في التوصل إلى نتائج بدون استكمال الدليل الأرشيفي (على الرغم من أن الدليل هنا واسع كبير في هذه الحالة)، ولأنه يتحدى وجهة نظر أساسية، حتى بين الممارسين في هذا الحقل العلمي، بأن هذه كانت من بين السلالات الحاكمة عنفاً وتدميراً . وكل من اشتغل بالدراسات المعاصرة عن الحرب والمجتمع في أجزاء أخرى من العالم سيكون على دراية بأن الاكتمال الأرشيفي هدف مستحيل (وغير متوقع أو منتظر) وأن العنف لم يعد خاصية محصورة على "الآخر" . إن ميرفي بعمله هذا وضع جدول أعمال للجدل والنقاش .

٣ - التحول إلى النزعة الشمولية الحديثة، ١٧٠٠-١٨٥٠م

محدثو منظمة القرن الثامن عشر هم موضوع الكتب الثلاثة القادمة في القائمة . فيعتبر كل من هيكوك وهاتواي العلاقة بين الأسر المحلية العثمانية والحملات العسكرية في كل من البويزة وفي مصر . ويناقدان معاً ظهور الأعيان

المحليين^(١) وبطاناتهم بحسب ما يُعزى لقدرتهم على استغلال احتياجات الدولة العسكرية. وكتاب هيكول عبارة عن وصف لمليشيات البوضة، وهي المليشيات الأكثر ولاءً وربما الأكثر خدمة في التنظيم العسكري المحلي في البلقان العثماني. ويصف أساليب الدفع، والتي ربما نظمت أولاً في شكل أوجاعات مجتمعية، وهو مصطلح يشير إلى إيرادات الأراضي وضريبة الرأس التي أعانت الحاميات والوحدات العسكرية المحلية، والتي أصبحت بعد ذلك عبارة عن ضريبة مزارع مدى الحياة. وبنفس الأهمية، يورخ هيكوك لتعاقبات الوزير الأعظم العثماني، حكيم أوغلو علي باشا، لعدة مرات حاكماً للبوضة ورئيساً للقوات البوضية التي قادت إلى الانتصارات العثمانية خلال الحرب النمساوية - العثمانية ١٧٣٦-٣٩. ولقد تدهور الاستقلال العسكري البوضية بالنسبة لفقدانهم السيطرة على العوائد التي كانت تدعم الحاميات المحلية.

وتفحص جاين هاتواي كيف أن أفراد أسرة أناضولية واحدة (كزداغلي) من أسر وحدات الانكشارية في مصر (وحدة المتفرقات وهي وحدة حرس نخبوية) ظهرت بوصفها تشكل قوة إقليمية بشكل دقيق في قدرتها على استغلال نظام ضرائب الالتزام/ الملكية على المزارع الذي أُدخل في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولقد وُلد إيجاد عوائل كبيرة وزواجات إستراتيجية وقيام مصالح تجارية القوة العظيمة التي أنتجت محمد علي باشا (١٨٠١-١٨٤٨م) حاكماً (بعدها خديوي) مصر، الذي عينه السلطان والذي أصلح الجيش المصري، وهدد الأسرة المالكة العثمانية نفسها في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

وعلينا الاعتراف بأنه ولا واحد من هذين الكتابين أسهل القراءة، ولا تمل كتب

(١) كما ذكرها بشيء من التخصيص ومنذ مدة طويلة ألبرت جوراني؛ في مقالته وذكرها بعد ذلك "The Politics Of Ottoman Notables" متين كونت باعتبارها جانباً تعريفياً للمرحلة المتوسطة من حياة الإمبراطورية.

التاريخ العسكري العادية. فكتاب هيكوك يتحدى سوى الفهم للملكية الثروة البوضية في التاريخ اليوغوسلافي الماركسي النزعة. وتقدم هاتواي آراء ضد مدرسة الكتابة التاريخية المصرية التي ترى أن الكزداغليين كانوا ببساطة يشكلون المرحلة الأخيرة من النظام المملوكي القديم، وهو لا يزال يشكل مرجعاً - للذات، على الرغم من أمثال هذه الجهود بتوسيع فهمنا للحقبة المتوسطة. ويوجد هنا الكثير مما يمكن أن يساهم لنمو التراث العلمي حول علاقات المركز - بالأطراف بعد عام ١٦٥٠م، وعلى وجه الخصوص بحسب ما هي مدفوعة من طرف احتياجات المراكز العسكرية.

ويقدم كتاب فهمي دراسة عميقة للإصلاحات العسكرية لمحمد علي، وكتابات التاريخ المصرية حول القرن التاسع عشر غنية وكثيرة. ولقد استخدم فهمي الأرشيف المصري في بحثه، وبالأذات المراسلات بين محمد علي وابنه إبراهيم، فاتح سورية عام ١٨٣١م. ويركز بحث فهمي على ولادة الجيش الوطني من طرف محمد علي عن طريق السماح للفلاحين المصريين بالانضمام للجيش. وهذا يشبه أبحاثاً أخرى أجريت في أنظمة التخيير في الجيش، وتطوير وحدات الضباط وتأثير أمثال هذه الإصلاحات على مجتمع تقليدي^(١). وفهمي متعاطف مع حالة المجندين ومع حالة ارتباكهم بسبب فرض أنظمة أوربية للانضباط العسكري، والنظام واندفاعهم للهروب من الخدمة العسكرية عند أي فرصة. إنها صورة لصحوة وحشية قاسية وفرض أنظمة أخلاقية أجنبية، بحسب نظرية فوكو. ويلاحق فهمي جانبان مهمان لوحداث الضباط المصريين، هو أنها كانت مكونة أصلاً من أجناب بشكل عام (شركس وأتراك انطاولييين وألبان) وأنها وحدات لا يمكن الاعتماد عليها

(١) مثل John Keep, *Soldiers of The Tsar: Army and Society in Russia, 1462-1824* (Oxford: Clarrend Press, 1985).

ويظهر أن تجربة الفلاح المصري والخادم الروسي الريفي متشابهة.

إطلاقاً (على الأقل في تقدير إبراهيم). ولقد عمل كل من محمد علي وابنه عمر. لاستبدال هؤلاء الضباط بمصريين من المتحدثين بالعربية، فهم على الأقل بإمكانهم الحديث بنفس اللغة كجنود تحت قيادتهم. إنه نفس الدرس القاسي الذي كان على السلطان محمود الثاني أن يتعلمه عندما بدأ إصلاحاته، إذ كان عليه فقط أن يرفض استخدام غير المسلمين (وبالذات اليونان الثائرين) في ضباط الصف والمناصب العليا. وبالرغم من تصور الكتاب الشخص، فإن فهمي يقضي وقتاً طويلاً في مقدمته، معارضاً أسلوب الكتابة التاريخية القومية المصرية التي تجعل محمد علي مؤسس مصر الحديثة، وحتى في هذه الجزئية هناك الكثير للمؤرخين العسكريين لعصر نابليون.

أما كتاب "تسليح الدولة: التجنيد العسكري في الشرق الأوسط ووسط آسيان ١٧٧٥-١٩٢٥م" فهو عبارة عن مجموعة أوراق علمية من مؤتمر عقد في مدينة نجمين في هولندا. ويشبه هذا الكتاب من حيث المدى مجلد كل من باري وباب الصادر في السبعينيات^(١). والتركيز هنا هو عن تأثير إبداع جيوش مجندين على مجتمعات الشرق الأوسط. فقصة التجنيد مستمرة من طرف "الإستراتيجيات العثمانية العسكرية في التجنيد في أواخر القرن الثامن عشر" (اكسان ٢١-٣٩) وأوريل مورو "المقاومة البوضية للتجنيد في القرن التاسع عشر" (١٢٩-١٣٨). والثورات البوضية المطالبة بالاستقلال كانت نتائج متوقعة في إقليم كان قد حافظ على استقلاله اعتماداً بشكل دقيق على قدرته في تزويد القوى البشرية العسكرية للدولة العثمانية. بالإضافة إلى ذلك هناك مقالة ممتعة رائعة لنيكول فان لوس بعنوان "الاهتمام بأسر العسكر" (٩٥-١٠٠) وهي وإن كانت خارج إطار هذه المراجعة،

V. J. Poary and M. E. Yapp, editors, War, Technology and Society in The Middle (١) East, (London: Oxford University Press 1975).

إلا أنه من المفيد ذكرها بوصفها واحدة من المقالات القليلة جداً التي عالجت مشكلة الحرب بدون حقوق للأرامل^(١).

أما العنوانان الأخيران في القائمة، فإنهما يقدمان تاريخاً مقارناً عن طريق نشر حوارات قريبة عن بعضها للبعض أكثر من تعاون بحثي. فجزء من جهود جريمي بلاك تشجيع قيام حوار بين مؤرخين لفنون الحرب من مجتمعات مختلفة، فإن هذين الكتابين هدفاً أن يكونا مقررات دراسية، ولكن ينبغي أيضاً أن يثبت أنهما صالحان لاستخدام الباحثين كذلك. ويوجد في كتاب "فن الحرب الأوربية ١٤٥٣-١٨١٥م" مقالة أعدها جاجبور اجستون بعنوان "فن حرب العثمانيين في أوروبا ١٤٥٣-١٨٢٦م" (١١٨-٤٤)، وبعدها مقالة عن "تطور القوة العسكرية الروسية، ١٤٥٣-١٨١٥م" أعدها جراين ديفيز (١٤٥-٧٩). والكتابان قيد النشر. ولقد قدم اجستون أيضاً مقالات في مجلدات كل من دايفيد وفودور التي أشرنا إليها. أما كتاب "الحرب في العالم الحديث المبكر ١٤٥٠-١٨١٢م"، فإنه يحتوي على مدى جغرافي أوسع. (١٤٧-٧٥) يتضمن مقالات من أجزاء أخرى عن العالم، مثل اليابان (بولي نارلي) والصين (بيتر لورج) والهند (خورجر مانز) وأمريكا الشمالية (أرمسترونج ستراكي)، وللمقالات في المجلدين قوائم المراجع الخاصة بهما، مما يجعلهما مفيدتين جداً لمن يهتمون بموضوع الحرب الحديثة المبكرة، والمجتمع في طول الدنيا وعرضها.

(١) لقد كان نيكول فان لوس مهماً في تطوير هذا الاتجاه منذ ذلك الوقت عن طريق تحفيز مؤرخي الحقبة المتأخرة من حياة الإمبراطورية لمناقشة الأمور العسكرية لحقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى ويقدم كتاب: *New Prespections on Turkey, Spring 2000* مقالاتين حول نمو المبادرات هما:

Isa Blumi, "Loking Beyond The Tride: Abandoning Paradigms to Write Social History in TominDuring World Ware I" (117-45). And Gottfried Hagen, "The Prophet Muhammad as an Exemlar in WarL Ottoman Veius on The Eve of World War I", (145-72).